الدرس (٠٩٣) من شرح رياض الصالحين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّه رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فنواصل قراءتنا في هذا الكتاب المبارك كتاب رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم لأبي زكريا النووي رحمه الله تعالى.

يقول المصنف أبو زكريا يحيى بن شرف النووي رحمه الله تعالى:

٤٩- باب إجراء أحكام الناس عَلَى الظاهر وسرائرهم إِلَى الله تَعَالَى

عقد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هذه التَّرجمة ليُبيِّن أنَّ الأصل في الحكم على النَّاس على الظَّاهر، والمراد بالظَّاهر، أي: ما يظهر من الإنسان، سواء من قوله أو فعله، فالحكم إنَّما يكون على ظاهر الإنسان، أمَّا باطنه فهذا أمره إلى الله؛ لأنَّه لا يطَّلع على البواطن والقلوب والسَّرائر إلَّا ربُّ العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولهذا جاءت النُّصوص دالة على أنَّ الحكم إنَّما يبنى على الظَّاهر، وقد يحكم على إنسان بأنَّه مسلم، وأنَّه مثلًا صالح، ويكون باطنه خلاف ذلك، لكن لا يحكم على أحدٍ إلَّا من خلال ظاهره، وتُوكَل سريرته إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ربِّ العالمين.

يقول المصنف رحمه الله تعالى:

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ [التَّوبة:٥].

قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ هذه مبنيَّة على هذه الأمور الظَّاهرة: إعلان التَّوبة، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، فهذه الأمور الظَّاهر تبنى عليها الأحكام، سواء ما ظهر من الإنسان

بلسانه، مثل أن يقول: أنا تائب، أو تبتُ، أو ينطق بالشَّهادة، وأيضًا بفعاله من صلاةٍ وزكاةٍ ونحو ذلك، أمَّا السَّرائر فتُوكَل إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويوم القيامة تكشف هذه السَّرائر كما قال تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات:١٠]، وكما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقَّة:١٨]، فجميع ما كان يخفيه الإنسان يظهره الله تبارك وتعالى يوم القيامة.

يقول المصنف رحمه الله تعالى:

٣٩٠- (وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١)).

٣٩١- (وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ طَارِقِ بْنِ أُشَيْمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ تَعَالَى**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢)).

هذان الحديثان كلاهما شاهدٌ لهذه التَّرجمة، من حيث أنَّ الحكم إنَّما يكون على الظَّاهر، فتقبل الأعمال الظَّاهرة، والحكم في هذه الحياة الدُّنيا، إنَّما يكون عليها، وتُوكَل السَّرائر إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الأوَّل: «**حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ**» وهذه كلُّها أعمال ظاهرة، وكذلك في الحديث الثاني قال عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ**».

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٥)، ومسلم (٢٢).

(٢) رواه مسلم (٢٣).

ومثله قوله ﷺ: «**مَنِ اسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَهُوَ المُسْلِمُ، لَهُ مَا لَنَا، وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْنَا**»، فهذه كلُّها تتعلَّق بالظَّاهر، وأنَّ الحكم إنَّما يكون عليها، أمَّا بواطن الإنسان فتُوكَل إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

يقول المصنف رحمه الله تعالى:

٣٩٢- (وَعَنْ أَبِي مَعْبَدٍ المِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَقِيتُ رَجُلًا مِنَ الكُفَّارِ، فَاقْتَتَلْنَا، فَضَرَبَ إِحْدَى يَدَيَّ بِالسَّيْفِ، فَقَطَعَهَا، ثُمَّ لَاذَ مِنِّي بِشَجَرَةٍ، فَقَالَ: أَسْلَمْتُ لِلهِ، أَأَقْتُلُهُ يَا رَسُولَ اللهِ بَعْدَ أَنْ قَالَهَا؟ فَقَالَ: «**لَا تَقْتُلْهُ**» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَطَعَ إِحْدَى يَدَيَّ، ثُمَّ قَالَ ذَلِكَ بَعْدَ مَا قَطَعَهَا؟! فَقَالَ: «**لَا تَقْتُلْهُ، فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ، وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٣).

ومعنى: «**أنَّه بمنزلتك**»، أي: معصوم الدَّم، محكومٌ بإسلامه، ومعنى: «**أنَّك بمنزلته**»، أي: مباح الدَّم بالقصاص لورثته، لا أنَّه بمنزلته في الكفر، والله أعلم).

وهذا الحديث فيه شاهد للتَّرجمة: أنَّ الحكم يعود إلى الظَّاهر، فهذا الرَّجل عندما قال: (أَسْلَمْتُ لِلهِ)، والمقداد يسأل النَّبيَّ ﷺ يقول: (أَأَقْتُلُهُ يَا رَسُولَ اللهِ، بَعْدَ أَنْ قَالَهَا؟) قال: «**لَا تَقْتُلْهُ**» مع أنَّه قد يكون قالها ليس عن إسلام، وإنَّما تعوُّذًا من القتل ، لأنَّ الحكم إنَّما مبناه على الظَّاهر وليس على السَّرائر وبواطن الأمور، فهذه لا يعلمها إلَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وسيأتي قول النبي ﷺ «أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟!».

يقول المصنف رحمه الله تعالى:

٣٩٣- (وَعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْحُرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ فَصَبَّحْنَا القَوْمَ عَلَى مِيَاهِهِمْ، وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ، فَلَمَّا غَشِيْنَاهُ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَكَفَّ عَنْهُ الْأَنْصَارِيُّ، وَطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا المَدِينَةَ، بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ لِي: «**يَا أُسَامَةَ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟!**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا

---

(٣) رواه البخاريُّ (٤٠١٩)، ومسلم (٩٥).

كَانَ مُتَعَوِّذًا، فَقَالَ: «**أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟!**» فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ اليَوْمِ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٤).

وفي روايةٍ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَقَتَلْتَهُ؟!**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السِّلَاحِ، قَالَ: «**أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟!**» فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عليّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ).

«الحُرَقَةُ»: بضمِّ الحَاءِ المهملة وفتح الرَّاء: بَطْنٌ مِنْ جُهَيْنَةَ، القَبِيلَةُ المَعْرُوفَةُ. وقوله: «مُتَعَوِّذًا»، أَيْ: مُعْتَصِمًا بِهَا مِنَ القَتْلِ لَا معْتَقِدًا لَهَا).

٣٩٤- (وَعَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ بَعْثًا مِنَ المُسْلِمِينَ إِلَى قَوْمٍ مِنَ المُشْرِكِينَ، وَأَنَّهُمْ الْتَقَوْا، فَكَانَ رَجُلٌ مِنَ المُشْرِكِينَ إِذَا شَاءَ أَنْ يَقْصِدَ إِلَى رَجُلٍ مِنَ المُسْلِمِينَ قَصَدَ لَهُ فَقَتَلَهُ، وَأَنَّ رَجُلًا مِنَ المُسْلِمِينَ قَصَدَ غَفْلَتَهُ. وَكُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّهُ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، فَلَمَّا رَفَعَ عَلَيْهِ السَّيْفَ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَتَلَهُ، فَجَاءَ البَشِيرُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَأَلَهُ وَأَخْبَرَهُ، حَتَّى أَخْبَرَهُ خَبَرَ الرَّجُلِ كَيْفَ صَنَعَ، فَدَعَاهُ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: «**لِمَ قَتَلْتَهُ؟**» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوْجَعَ فِي المُسْلِمِينَ، وَقَتَلَ فُلَانًا وَفُلَانًا، وَسَمَّى لَهُ نَفَرًا، وَإِنِّي حَمَلْتُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَى السَّيْفَ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَقَتَلْتَهُ؟**» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «**فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ القِيَامَةِ؟**» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، اسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ: «**وَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ القِيَامَةِ؟**» فَجَعَلَ لَا يَزِيدُ عَلَى أَنْ يَقُولَ: «**كَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ القِيَامَةِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٥)).

هذا الحديث والحديث الَّذِي قبله فيهما دلالة على التَّرجمة، من أنَّ الأصل في الحكم على النَّاس إنَّما هو على الظَّاهر، أمَّا البواطن فلا يعلم بها إلَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا قال في

---

(٤) رواه البخاريُّ (٦٨٧٢)، ومسلم (٩٦).

(٥) رواه مسلم (٩٧).

الحديث الأوَّل: «أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟!» أي: أقالها تعوُّذًا أم لا؟ لأنَّ هذا أمرٌ يتعَلَّق بسريرة الإنسان وقلبه، ولا يمكن الحكم عليه؛ لأنَّه لا سبيل للاطِّلاع عليه، وأمَّا الحكم إنَّما يكون على ظاهر الإنسان، فمَن نطق بالشَّهادتين وأظهر سريرةً حسنةً، يقبل ما أظهر، وتُوكَل سريرته إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولقد نفع الله – عز وجل – أسامة بن زيد حِبَّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وابنَ حبِّه – رضي الله عنهما – نفعًا عظيمًا، ولهذا جاء في بعض الروايات أنَّ أسامة قال: إِنِّي أُعْطِي اللهَ عَهْدًا أَلا أَقْتُلَ رَجُلا يَقُولُ لا إِلَهَ إِلا اللهُ أَبَدًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم: بعدي يا أسامة؟، قلت: بعدك. رواه البيهقي في دلائل النبوة.

ولهذا لما وقعت الفتنة في زمن علي – رضي الله عنه – بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، اعتزل أسامة رضي الله عنه وكان مِنَ الصحابة الذين اعتزلوا الفتنة – رضي الله عنهم – أجمعين، روى نعيم بن حماد المروزي في كتابه الفتن أن عليًّا – رضي الله عنه – لقي أسامة بن زيد أو أرسل إليه فقال له علي ما كنا نعدك إلا من أنفُسنا يا أسامة فلم تدخل معنا في هذا الأمر فقال أسامة يا أبا الحسن إنك والله لو أخذت بمشفر الأسد لأخذت بمشفره الآخر معك حتى نهلك جميعا أو نحيا جميعا فأما هذا الأمر الذي أنت فيه فوالله ما كنت لأدخل معك فيه أبدا. وفي رواية قال: "والله لو كنت في شدق أسد لأحببت أن أكون معك فيه ولكن هذا أمر لم أره".

وفي البخاري عن ابن عمر رضي الله عنه، قَالَ بَعَثَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ فَدَعَاهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا أَسْلَمْنَا فَجَعَلُوا يَقُولُونَ صَبَأْنَا صَبَأْنَا فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ مِنْهُمْ وَيَأْسِرُ وَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمٌ أَمَرَ خَالِدٌ أَنْ يَقْتُلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ فَقُلْتُ وَاللهِ لاَ أَقْتُلُ أَسِيرِي ، وَلاَ يَقْتُلُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِي أَسِيرَهُ حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَذَكَرْنَاهُ فَرَفَعَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَدَهُ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ مَرَّتَيْنِ.

وقد أفادت هذه النصوص حرمة الدماء المعصومة، وجاءت متضمنة أشدَّ التحذير وأعظمه والوعيد الشديد لمنتهك هذه الحرمة المتعدي على الدماء، وهي تدل على خطورة الأمر وعِظمه.

فيجب على كل مسلم أن يعي خطورة هذا الأمر، وأن يتحقق من نفسه أن يكون خروجه من هذه الدنيا سليمًا معافًى مِنْ أن يكون له يدٌ في دماء المسلمين، وأن لا يشارك في تحريضٍ أو تأييدٍ أو تمالؤ مع أهل الضلال والباطل، فإن المتمالئ مع أهل الضلال له نصيبٌ من فعلتهم وإن لم يشارك معهم بيده، فإن الذي باشر قتل الناقة مِنْ قوم صالح - عليه السلام - أشقى القوم، لكن الله - عز وجل - وصف الجميع بقوله: {فَعَقَرُوهَا} [هود:٦٥]، وعمَّت العقوبةُ الجميع.

قال عبد الواحد بن زيد للحسن البصري: «يا أبا سعيد أخبرني عن رجلٍ لم يشهد فتنة ابن المهلب بن أبي أصفر إلَّا أنَّه عاون بلسانه ورضي بقلبه، فقال الحسن: يا ابن أخي كم يدًا عقرت الناقة؟ قلت: يد واحدة، قال: أليس قد هلك القوم جميعًا برضاهم وتمَالِيهم؟». رواه الإمام أحمد في الزهد.

ومَنْ كان له حظٌّ من الإسلام ولو نزرًا قليلًا وقدرًا يسيرًا فإن دمه محرم ومعصوم جاءت الشريعة بتحريمه، بل حتى ولو لم يكن له في الإسلام إلا قول: «أسلمتُ» كما تقدم بل الذين قالوا «صبأنا صبأنا» ولم يحسِنوا أن يقولوا: أسلمنا قد تبرأ النبي - عليه الصلاة والسلام - من صنيع من قتلهم.

فماذا يصنع أقوام في زماننا هذا جهلوا دين الله - عز وجل - وشرعه، وكانوا في منأى بعيد عن الفقه في دين الله، وفي بُعد شديد عن أهل العلم والدراية بشرع الله - سبحانه وتعالى -، تجرأوا جرأةً عظيمة على الدماء إراقةً لها؟! فماذا يصنع هؤلاء البغاة الظالمون المعتدون بـ «لا إله إلا الله» يوم القيامة في دماءٍ كثيرة أراقوها دون خوفٍ من الله - عز وجل -، ودون تفكر في العواقب الوخيمة والمآلات العظيمة التي يجنونها ويجرُّونها على أنفسهم بفعائلهم الشنيعة؟!

وقد كتب رجلٌ إلى عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – أن اكتب لي بالعلم كله؛ فكتب إليه عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما –: «إن العلم كثير، ولكن إن استطعت أن تلقى الله يوم القيامة خفيف الظهر مِنْ دماء المسلمين، خميص البطن من أموالهم، كافَّ اللسان عن أعراضهم، ملازمًا لجماعتهم فافعل»

يقول المصنف رحمه الله تعالى:

٣٩٥- (وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: إِنَّ نَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالْوَحْيِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَإِنَّ الوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ، وَإِنَّمَا نَأْخُذُكُمُ الْآنَ بِمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا أَمَّنَّاهُ وَقَرَّبْنَاهُ، وَلَيْسَ لَنَا مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ، اللهُ يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءًا لَمْ نَأْمَنْهُ وَلَمْ نُصَدِّقْهُ وَإِنْ قَالَ: إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ، رَوَاهُ البُخَارِيُّ(٦)).

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إِنَّ نَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالوَحْيِ) أي: يأتي الوحي بفضحهم، وهتك أستارهم، وبيان حقيقتهم من المنافقين وأشباههم الذين كانوا يظهرون الخير ويبطنون الشر، وكان الله يفضحهم بما ينزل من الوحي على رسوله صلى الله عليه وسلم بذكر أوصافهم التي تحدد أعيانهم كقوله تعالى {وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ} وقوله: {وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ} وقوله: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} في مواضع عديدة من سورة التوبة التي تسمى الفاضحة لأنها فضحت المنافقين وهتكت أستارهم، لكن بعد انقطاع الوحي يقول عمر: (وَإِنَّمَا نَأْخُذُكُمُ الْآنَ بِمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ) ثمَّ بيَّن ذلك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: (فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا أَمَّنَّاهُ وَقَرَّبْنَاهُ، وَلَيْسَ لَنَا مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ، اللهُ يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ

---

(٦) رواه البخاريُّ (٢٦٤١).

لَنَا سُوءًا لَمْ نَأْمَنْهُ وَلَمْ نُصَدِّقْهُ وَإِنْ قَالَ: إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ) ففي ذلك بيان أنَّ الحكم إنَّما يكون على الظَّاهر، وأمَّا البواطن فتُوكَل إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، الله يُحَاسِب عليها، كما قال عمر: (اللهُ يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ)؛ لأنَّ أمر السَّريرة لا يَطَّلع عليه إلَّا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وهذه من نعمة الله سبحانه وتعالى علينا ألا نحكم إلا على الظاهر لأن الحكم على الباطن من الأمور الشاقة المتعذرة ونية الإنسان وسريرته بينه وبين ربه وأمرها إلى رب العالمين عز وجل الذي يعلم ما توسوس به الأنفس وما تكنه الصدور. قال تعالى {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} وقال تعالى: {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ}.

هذا ونسأل الله أن يوفقنا أجمعين لكل خير، وأن يصلح لنا شأننا كله، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيمًا؛ إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل. وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.